التمدن والتوحش

نظر جماعة من الكتبة في اخلاق البشر واديانهم واحكامهم وبقيّة احوالهم المعاشية ثم ارتقوا منصّة القضاء وحكموا عليهم بالتمدن او بالتوحش او بالتوسط بينهما . ولو اكتفوا بهذا الحكم من باب علي لهان الامر لانّ الاحكام العلمية تتغير على مرّ الايام والآراء الشخصية لا تحطُّ من قدر الانام . ولكنهم جعلوا هذا الحكم مندوحة لما نراهُ من تحامل بعض الدول على غيرهم من الشعوب بحجة انتشالهم من وهدة التوحش وادخالهم في ظل المدنية . وأنا لا نطيل الكلام في ما وراء هذه الدعوى من الاجحاف بحقوق الامم ولا في ما نتج عنها من جبرهم على اقتباس التمدّن الاوربي بما فيهِ من المحامد والمذام. لانّ الاوّل بحث طويل نُرجئهُ الى فرصة أُخرى والثاني قد فصّلنا بعضهُ في ما كتبناهُ عن اضرار التمدن السريع في الجزء الخامس من هذه السنة . وسنحصر كلامنا الآن في دعوى الذين يَسمون انفسهم بالتمدن ويَسمون غيرهم بالتوحش لنرى منزلتها من الحقائق فنقول

عند ما اكتشف الاسبانيون اميركا وبعثوا بجنودهم لفتحها وجدوا فيها شعبًا كثير المدائن فخيم المباني عندهُ من الآلات والادوات والكتب والخرائط ما يعجز عن وصفهِ القلم فاطلقوا عليهِ لقب التوحُّش واجتاحوا بلادهُ ونزعوا منها تمدُّنها القديم وغرسوا فيها تمدنهم الاسباني . ولكنّ الذين انصفوا من المؤرخين قالوا ان الاسبانيين اولى بهذا اللقب من ذلك الشعب وان التمدن الذي غرسوهُ في تلك البلاد احطُّ شأنًا واوطأُ درجة من التمدن الذي نزعوهُ منها

وما يتمشّى على ذلك ان الاوربيين الذين دخلوا الهند اوّلاً وَسموا براهمتها بسمة التوحش مع انهم اوفر من كل الاوربيين علمًا وحكمةً . والمشهور عندنا الآن ان الزولو اشد الناس توحشًا ولكنّ العلّامة مكس ملر قال ان واحدًا منهم جادل مطرانًا انكليزيًّا فلم يستطع المطران ان يفحمهُ في الجَدَل . وقد ابنّا في الجزء الخامس ان عدد الموارين اهالي زيلندا الجديدة أخذ في التناقص منذ دخل الاوربيون بلادهم بداعي التمدن السريع الذي ادخلوهُ بينهم. ويظهر من شهادة احد عقلائهم انهم كانوا في بسطة من العيش قبل دخول التمدن الاوربي . وقد اورد هذه الشهادة العلّامة مكس ملر فنقلناها عنهُ وهي "لم نكن في الايام السالفة كما نحن الان فان رجالنا كانوا يحترفون الحرب والطراد ونساءنا الفلاحة والزراعة وكنا اصحّاء الابدان اقوياء الاجسام . ثم اقبل علينا الافرنج فتضعضعت احوالنا وانقرضنا نحن وحيوانات بلادنا . وانتشبت الحرب بيننا وبين الدخلاء وتعلمنا منهم السكر والتدخين

وانهالت علينا دواعي الانقراض فانقرض الكثير منا وسنضمحل عن آخرنا ولا يبقى من آثارنا الا اسماء جبالنا وانهارنا"

وقد سبق العلامة ابن خلدون فابان" ان الامة اذا غُلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء ولو لم ينزل بها ظلم ولا عدوان" . وقال " ان اهل البدو اقرب الى الخير من من اهل الحضر ... وان اهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوّثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم فتجد الكثير منهم يتدعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم واهل محارمهم ولا يصدُّهم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها . فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها . وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير . فهم اقرب الى الفطرة وابعد عما يطبع في النفس من سوء الملكات"

وعندنا شواهد كثيرة تؤيد هذا القول السديد منها شهادة عالم كبير من العلماء الاميركيين مشهود له بسعة الاختبار ودقة البحث وهو العلامة مُرغَن شهد ها في قبائل الايروكوبز من هنود اميركا وهي انهم اهل ولاء ولو تحت اشد الاخطار ووفاء مهما تجشموا لاجله من الاثقال . وقد جمعوا بين افضل الفضائل والطف الشمائل وبين الشهامة وعزة النفس . كل ذلك وهم مقيمون في ربوعهم التي نحسبها موحشة خالية من شعائر الانس" وقال ايضاً " قد مضى على الاوربيين قرنان وهم يضايقون هؤلاء الهنود بالحرب والاجتياح وما يبثونه بين ظهرانيهم من شرور التمدن الاوربي (كالسكر والعهر) ولم يتغلبوا عليهم . وعندهم نظام سياسي محكم غاية الاحكام وهم عليه محافظون وله خاضعون " . وقال آخر ان اهالي الولايات المتحدة اقتبسوا كثيراً من نظامهم السياسي عن هؤلاء الهنود لان حكومتهم (اي حكومة الهنود) شورية كحكومة اميركا وهم انفسهم قد اشاروا على اهالي الولايات سنة ١٨٠٠ أن يتضم بعضهم الى بعض في الدفاع عن انفسهم كانضمامهم هم . وقال هنتر ان السنتال (وهم جيل من هنود الهند) اصدق اناس رأيتهم في حياتي وقال غيره ان الصوراه (جيل آخر) لا يكذبون ولا يعرفون الكذب وان النودا يحسبون الكذب من شر المآثم . وقال هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي المشهور ان قبائل الهند الجبلية لم تعتد الكذب الا بعد

الى الارض والبقية تذهب كل مذهب في نواحي الفضاء. ثم ان معدّل الرجم التي تهبط على الارض في السنة سبعماية رجم وعليهِ يكون عدد الرجوم المقذوفة من القمر في السنة اكثر من سبعماية الف الف رجم. ذلك كلهُ وبراكين القمر منطفئة لا تقذف شيئًا كما تحقق من رصدها سنين مديدة ولم يثبت انهُ يوجد بينها بركان هائج مع ان بعضهم زعم انهُ رأى بينها بركانًا هائجًا. ففي ما تقدم كفاية لابطال زعمهم

ثبت اذًا ان الشهب والنيازك والرجم اجسام غير ارضية ولا قمرية فهي سماوية كالسيارات الدائرة حول الشمس وهو المطلوب اثباتهُ. ونزيد عليهِ ان اصلها مثل اصل ذوات الاذناب وانها كلها من مصدر واحد. ويتضح دليلنا على ذلك بهذا المثال: اذا رأى الواقفون في ساحة القتال قنابل المدافع تتساقط عليهم متوالية من جهة واحدة ترجح عندهم انها منطلقة من مدفع واحد او من مدافع قريب بعضها من بعض. واما اذا حسبوا طريق قنبلة وعيّنوا مكان صدورها ثم حسبوا طريق قنبلة أخرى ووجدوهُ ينطبق على طريق الاولى انتفى الريب عندهم في ان القنبلتين أُطلقتا من محلٍّ واحدٍ. وعلى هذا الحكم تقرّر عند علماء الهيئة أنّ الشهب وذوات الاذناب صادرة عن اصل واحد فقد حسبوا فلك ذي الذنب الثالث الذي ظهر سنة ١٨٦٦ وعيّنوا طريقهُ التي كان دائرًا فيها حول الشمس فوجدوا انهُ ينطبق على فلك شهب آب انطباقًا غريبًا. وحسبوا فلك ذي الذنب الاوّل الذي ظهر سنة ١٨٦٦ وهو المعروف بمذنّب تمل فوجدوا انهُ ينطبق كذلك على فلك شهب تشرين الثاني. وقد وجدوا مثل هذا الانطباق بين افلاك ذوات اذناب أُخرى وشهب أُخرى ايضًا. فلم يبقَ عندهم شبهة في ان اصل الشهب وذوات الاذناب واحدٌ

نقول وما هو اصلها وكيف وُجِدَت في الكون. نقول ان الرأي الشائع في اصلها هو رأي شيابارلي الفلكي وملخصهُ ان سديمًا من السدم الجائلة في الفضاء دخل حدود جاذبية الشمس فاجتذبتهُ اليها ثم جعلت تغيّر شكلهُ بجاذبيتها حتى صيّرتهُ شبيهًا بالاسطوانة الطويلة مقدمهُ وهو القريب الى الشمس مجتمع كثيف ومؤخرهُ وهو البعيد عنها منبسطٌ لطيف. وهذا هو اصل ذي الذنب. ثم انهُ لم يزل يزيد امتدادًا واستطالة بدورانهِ حول الشمس حتى التفّ ذنبهُ براسهِ فتكوّن منهُ حلقة محيطة بالشمس. وهذا هو اصل حلقة الشهب. وعليهِ يُظَن ان شهب آب قد صارت حلقة تامّة وان شهب تشرين الثاني لم تتم الحلقة حتى الآن فهي احدث عهدًا من شهب آب

الّا ان جماعة من العلماء الذين نظروا في تفاصيل هذا الرأي وفحّصوا دقائقهُ وجدوا فيها امورًا لا تنطبق على الواقع ولا محل لذكرها هنا. ولذلك عدلوا عنهُ الى رأي من رأيين آخرين احدهما ان الشهب هي بقايا السديم الاصلي الذي تكوّنت منهُ الشمس والسيارات الدائرة حولها.

ومعلوم ما كانت عليهِ اوربا من الاوهام في القرون الوسطى وما بعدها وكيف انها كانت تحاكم الجرذان وتحرمها او تقضي عليها بالنفي . ولنا في ذلك كلام قليل ادرجناهُ في المجلد السادس في مقالة عنوانها "مستقبل المشرق" وصدّرناها بكلام نستميح القراء الكرام باعادتهِ وهو قولنا

"لبعض رجال العلم والسياسة من الاوربيين ظنون كثيرة في مستقبل المشرق يفضي اكثرها الى ان الامم الشرقية قد القت مقاليد السيادة الى الامم الغربية ولن تستردها وتصوّبت في مهاوي الخسف والذل ولن تصعّد منها . ولهم على ذلك دليلان تأخرُ المشرق الحاضر وقِدَم ارومة الشعوب القاطنة فيهِ الداعي الى انحطاطها بقياس التمثيل على غيرها من المخلوقات التي انقرضت او كادت لما تقادم عهدها . ونحن لا نلتفت الآن الى الثاني من هذين الدليلين لان الاستقراء فيهِ ناقص ولم يعُدَّ اضدادًا من الافرنج انفسهم لا يحُطُّ رأيهم عن راي انصارهِ ولكنا نلتفت الى الاوّل بعين البصيرة لانهُ حقيقة حالنا ولهُ في نفوسنا وقع عظيم . فاننا والحق يشهد كلما تأملنا في احوال المشرق وشعوبهِ ولغاتهِ يكاد يقضي علينا الاسى لولا تأسّينا ولا سيما اذا قابلنا انفسنا باوربا واميركا وقد كادتا تطيران من عالم الوجود ونحن كالحجر الاصم لا نبدي حراكًا . ولكنا اذا قلبنا صفحة واحدة من تاريخها تقشّعت غيوم القنوط من امام اعيننا وظهرت لنا تباشير شمس الرجاء ورأينا ان شرقنا في حالتهِ الحاضرة جنة بالنسبة الى ما كانتا عليهِ منذ قرنين او ثلاثة

ومن لنا بحكَم منصف يقابل احوال اوربا في ذلك العصر باحوال بلادنا في هذه الايام او باحوال بلاد سيام وهي في المشرق الاقصى . فان كهنة سيام اشاروا على الناس في السنة الماضية ان يلتجئوا الى استخدام الفرائض الدينية دفعًا للهواء الاصفر الذي دخل بلادهم فاذاع ملكهم منشورًا يقول فيهِ

"قد اشاع الكهنة ان بياجمرات (ملك الجحيم) سينتقد البلاد بالوباء في اليوم الثالث من الشهر الثامن فتهرُّ الكلاب وتنعب الغربان ويقبض بياجمرات نفس كل حيّ . واشاروا عليكم ان تحملوا نسخًا من الكتب المقدسة وان لا تضيئوا انوارًا في بيوتكم ولا تأكلوا لحمًا ظريًّا لكي تنجوا من الوباء . وملككم يعلم ان كثيرين من رعاياهُ يصدقون هذه الاوهام ويعلم ايضًا ان هذا الخداع قد تكرّر المرار العديدة حتى سئمتهُ النفس . وسذاجة الناس وخوف الموت يصدانهم عن التمييز بين الحق والبطل ... وما القائمون بهذا الخداع الاّ لصوص يريدون بكم ان لا تضيئوا بيوتكم لكي ينهبوها وان تبتاعوا النسخ المقدسة منهم لكي يستغنوا بثمنها فلا تصدقوهم

اما الوباء فيشتد ايام الحر ويخف عندما يقع المطر وقد وقع المطر هذا الشهر فخفّ الوباء. فعلى مَ يقول هؤلاء المخادعون انهُ سيشتدّ ثانيةً في الشهر القادم. انهم يقصدون نكم شرًّا فلا تخافوا من الارواح الشريرة بل خافوا من الناس الاشرار. فاحرسوا بيوتكم من اللصوص ونظفوا حياضكم ومساكنكم وابدانكم ولا تاكلوا لحمًا فاسدًا. واذا اصابكم الم في معدكم فلا تستخفُّوا بهِ بل بادروا الى العلاج. وقد وضعنا دواء الهواء الاصفر في كل المراكز الطبية المختصة بدولتنا لكي يفرَّق عليكم ونشرنا هذا المنشور رحمة برعايانا الذين تحملهم سذاجتهم على تصديق الاكاذيب"

هذا منشور ملك سيام وهو حدَثٌ في بلاد وثنيَّة وفي الامس كانت اوربا تنشر المناشير على رعاياها ليصلُّوا الى الله لكي يبعد عنهم شر النجم ذي الذنب وتدَّعي انها في اوج التمدن

نقول ذلك على علم بان دعاوي كثيرين من كتبة هذه الايام لا تنطبق على الحقائق التي اثبتها العلماء وقولهم في توحش الامم وتمدنها لا يصدق على تعريف العلماء للتمدن والتوحش. على اننا لا ننكر ان الافرنج سابقون علمًا وصناعةً وزراعة وانتظامًا في الهيئة الاجتماعيَّة وعندهم من اسباب التمدن ما ليس عند غيرهم وانما ننكر عليهم دعواهم بانهم مستأثرون بهِ دون غيرهم وانهم ارقى الشعوب آدابًا ومحامد على حين نرى رذائل تمدنهم تخرب البيوت وتنقض دعائم الفضائل حتى لقد كادت سيئاتهُ تحجب حسناتهِ عن البصائر وصار يخشى ان تكون عاقبتهُ الضعف والانقراض لا القوة والارتقاء

فلسفة اللباس

النبذة الاولى. في اللباس الطبيعي

بحث الجيولوجيون في طبقات الارض فوجدوا فيها احافير قديمة جدًّا لكل انواع الحيوان والنبات الاَّ الانسان فان آثارهُ واحافيرهُ التي وجدوها حديثةٌ جدًّا بالنسبة الى غيرهِ من الحيوان. وللعلماء في ذلك مذهبان شهيران الاوَّل ان الانسان حديث على الارض لم يُوجَد عليها الاَّ منذ بضعة الوف من السنين. والثاني انهُ حديث في الاقاليم المعتدلة التي بحث الجيولوجيون فيها عن احافيرهِ ولكنهُ قديم جدًّا في الاقاليم الحارَّة التي لم يبحثوا فيها حتى الآن. ويقول بعض الذين يذهبون هذا المذهب انهُ اذا استتبَّ لخلفائنا ان يحفروا ترعة تصل بين النيل والكونغو نهرَي افريقية العظيمين عثروا فيها على آثار الاقدمين واحافيرهم. وقد فصَّلنا هذين المذهبين في